مراجعة كتاب..
تحت وطأة الحائط
حارة المغاربة في القدس: حياتها وموتها (1187-1967)

مراجعة : محمد رضوان

باحث مغربي متخصص في شؤون القدس

طتاريخ النشر: 2026/03/20 (العدد (30)، ربيع 2026)

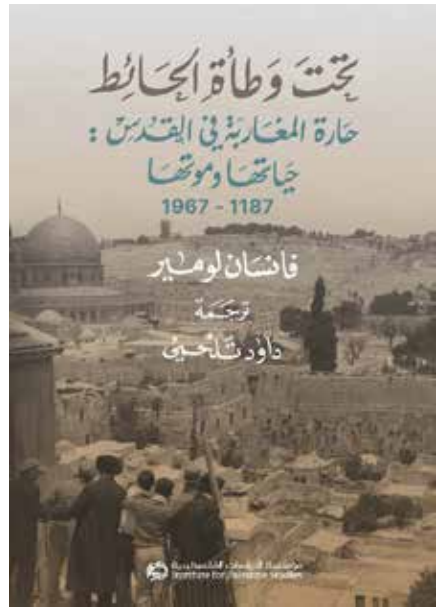

غلاف الكتاب المترجم (485 صفحة)

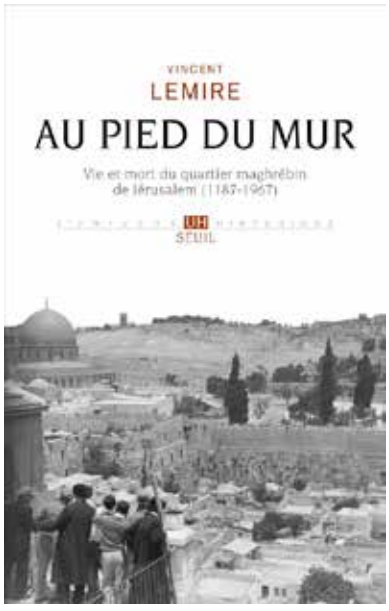

غلاف الكتاب الأصلي (بالفرنسية) (pages 416)

برغم انتماء المؤرخ فانسان لومير(Vincent LEMIRE) للمؤسسة الثقافية الرسمية الفرنسية ، إلا أن إسرائيل لا تنظر إليه بعين الرضى لسببين اثنين ؛ سياسيًا وأكاديميًا . ففي 12 يناير/ كانون الثاني 2026 نشرت صحيفة لوموند (Lemonde) الفرنسية قصاصة بعنوان «تحت الضغط ، سمحت السلطات الإسرائيلية أخيراً للمؤرخ فانسان لومير بالسفر إلى إسرائيل» . وكان لومير قد مُنع من دخول إسرائيل بسبب تنديده علناً بالوضع الإنساني الكارثي في غزة ، ودعوته إلى فرض عقوبات على إسرائيل ، وتخطيطه لعقد نحو عشرين ندوة ولقاء مع باحثين وطلاب ، من بينهم إسرائيليون وفلسطينيون .

لكـن خلـف هـذا الموقـف السياسـي ، الـذي لـم يتفـرد بـه لوميـر في وسـط النخبـة الفرنسـية المثقفـة ، هنـاك سـبب آخـر يعـد - برأيـي- الأقـوى في منعـه سـابقا مـن دخـول إسـرائيل ، ويتعلـق الأمـر بعامـل أكاديمـي يتمثـل في كتابـه «**تحـت وطـأة الحائـط : حـارة المغاربـة في القـدس : حياتهـا وموتهـا** (1187-1967)» (Lemire, 2022) .

الموضـوع الرئيـس للكتـاب ليـس جديـدا في اهتمـام المؤرخـين والأكاديميـين ، إذ ينصـب علـى «حـارة المغاربـة» التـي كتـب عنهـا الكثيـرون ، لكـن لوميـر يعـود لهـذا الموضـوع مـن منظـور المؤرخ المُدقـق ، والخبيـر المُتمكـن مـن التنقيـب في الأرشـيفات والوثائـق الدبلوماسـية ، واسـتقراء المخطوطـات غيـر المتاحـة لعامـة الباحثـين والمؤرخـين .

يبـدو أن اهتمـام لوميـر بالقـدس ودراسـاته التاريخيـة عنهـا ، كشـف لـه عـن تلـك الحلقـة المفقـودة أو «المنسـية» كمـا يصفهـا هـو عـن المصيـر المأسـاوي الـذي لقيـه ذلـك الحـي ، أو تلـك الحـارة المغاربيـة ، بعـد صمودهـا لعـدة قـرون .

يمتلـك لوميـر ، الحاصـل علـى شـهادة تدريـس في التاريـخ (1998) ودكتـوراة في التاريـخ (2006) ، المؤهـلات العلميـة كافـة للغـوص في ذاكـرة الحـي ، كمـا يمتلـك شـروط ذلـك كونـه مديـرا للمركـز الفرنسـي للأبحـاث في القـدس (CNRS-MAE) ، وأسـتاذا في جامعـة باريس-إيسـت/ غوسـتاف-إيفل ، ومديـرا لمشـروع القـدس المفتوحـة الأوروبـي ، فضـلا عـن أنـه سـبق لـه أن أصـدر مؤلفـات عديـدة عـن القـدس ، منهـا ؛ «القـدس ، تاريـخ مدينـة عالميـة» (فلاماريـون) وكتـاب «تاريـخ القـدس» ، الصـادر عـن دار نشـر أريناس بـي دي (بيعـت منـه 350 ألـف نسـخة) ، وكتـاب «العطـش في القـدس : دراسـة عـن التاريـخ المائـي» (2010) ، و»القـدس 1900 . . زمـن التعايـش والتحـولات» . .

في كتابـه الأخيـر ، قيـد المراجعـة هنـا ، «**تحـت وطـأة الحائـط : حـارة المغاربـة في القـدس : حياتهـا وموتهـا** (1187-1967)» الصـادر في 2022 عـن دار النشـر الفرنسـية لوسـوي (Le Seuil) ، والـذي قامـت مؤسسـة الدراسـات الفلسـطينية بترجمتـه (لوميـر ، 2024) ، يُذكِّـر لوميـر أن «حـارة المغاربـة» أو «حـارة المغاربيـين» -كمـا يسـميها- تعـد واحـدة مـن أجـزاء القـدس التاريخيـة المشـهورة . وتعكـس هـذه الحـارة ، التـي تم تجريفهـا مـن قبـل سـلطات الاحتـلال الإسـرائيلي ليلـة العاشـر مـن العـام 1967م ، جانبـا بـارزًا مـن صـور ارتبـاط المغاربـة أو المغاربيـين بالقـدس ، ورمـزًا تاريخيًـا لحضورهـم وجهادهـم ومشـاركتهم في أحـداث كبـرى عرفتهـا هـذه المدينـة منـذ الربـع الأخيـر مـن القـرن التاسـع عشـر ، وقبـل ذلـك عقـب اسـتعادتها مـن الصليبيـين علـى يـد صـلاح الديـن الأيوبـي (رضـوان ، 2023 ، ص : 6) .

واسـتنادا إلـى دراسـات عنيـت بتاريـخ الحـارة ، يمكـن القـول إن طابعهـا العمرانـي كان شـبيها بالأحيـاء العتيقـة في المـدن العربيـة والإسـلامية القديمـة (يُنظـر : التـازي ، 1972 ؛ بـركات ، 2021 ؛ الجعبـة ، 2021 ؛ باجـس ، 2024) .

يستفيض المؤرخ الفرنسي فانسان لومير في مؤلفه ، وعبر صفحاته التي تناهز 397 صفحة ، في ذكر مظاهر الحياة التي كانت تزخر بها حارة المغاربيين طوال عدة قرون بفضل مجموعة من المؤسسات ، والأوقاف الخيرية ، التي كانت تهدف إلى إيواء ورعاية القادمين إليها من الغرب الإسلامي على غرار وقف أبي مدين الشهير .

غير أن لومير لا يكتفي هنا بتتبع ثمانية قرون من حياة هذه الحارة في القدس ، ولكن أيضًا طريقة اختفائها المفاجئ في أعقاب حرب حزيران – 1967 ، والتكتم على حدث تجريفها وإزالتها بشكل نهائي ، بعد أن سمحت إسرائيل لنفسها بالاستيلاء عليها ، وإجلاء أعداد كبيرة من سكان الحي في غضون ساعتين فقط لمحو آثارهم وتاريخهم بالجرافات فيما قضى عدد آخر منهم رفض التهجير تحت الأنقاض .

وصمة عار

يرى لومير أن تجاهل ما حدث لحارة المغاربة ونسيانه ، واللامبالاة التي واجهت تلك المأساة ، إنما هي وصمة عار مستمر ؛ لأن الأمر لا يتعلق بقطعة أرض أو بنايات تم تجريفها في لحظة صراع مرير غير متكافئ ، وإنما إحداث فراغ مهول وجارف لتاريخ امتد لمئات السنين في حارة شكلت أساس الوقف الإسلامي بجوار الأقصى المبارك .

إنه هدم لواحدة من الأجزاء الأساسية الغنية بالرمزية التاريخية المجاورة لحائط البراق ، المعروف أيضا بالحائط الغربي ، داخل بلدة القدس القديمة . ويعكس ذلك ، بالتالي ، واحدة من الصور الفظيعة من مأساة فلسطين عامة تحت أنظار العالم .

الحياة في هذه الحارة ، كما يعيد الكاتب رسم ملامحها ، كانت تقوم على نظام مُحكم للتدبير الذاتي المعتمد على العقارات والدخل المُستمد منها ،لضيافة ودعم الوافدين من بلاد المغارب ، العابرين منهم والمقيمين ، وتلبية احتياجاتهم وأغراضهم .

في الكتاب ، صورٌ فوتوغرافية ووصفٌ لجوانب متنوعة من هذا النظام المعيشي الذي تفردت به الحارة ، سَلَك لومير في إخراجها منهجية الحفر في الذاكرة ، والتنقيب في الأرصدة الأرشيفية المحفوظة في القدس وفي عواصم أخرى .

يكشف الكتاب ، في هذا السياق ، عن صدمات قيام دولة إسرائيل وتداعياتها الكارثية ؛ النكبة ، وسقوط القدس عام 1967 ، ما أدى إلى تدمير فوري ووحشي لهذا المجتمع العريق . ولإحياء ذكرى النصر العسكري الإسرائيلي وتهيئة الظروف للاحتفال بعيد الأسابيع

(شافوعوت) في الأيام التالية ، بحضور أكبر عدد ممكن من المصلين . تم هدم حي المغاربة في أعقاب ذلك ، دون أي فهم حقيقي لعملية صنع قرار تنفيذ هذه المأساة ، التي لم يحصل ضحاياها من السكان إلا على تعويضات زهيدة (Cohen-Muller, 2024) .

تواريخ أشخاص وأمكنة وأزمنة

لتفصيل ما جرى للحارة ليلة اختفائها ، يطرح لومير في كتابه جملة من الأسئلة الحارقة من قبيل ؛ لماذا لم يحظ حدث هدم الحارة إلا بقليل من الاهتمام والمتابعة؟ لماذا أريد لِما حدث أن يلفه النسيان والإنكار ويتلاشى في فجوة معرفية أو ثقب غائر في الذاكرة؟

يضيف المؤلف أن هذا الإنكار والنسيان يحصل برغم أن تاريخ حارة المغاربة يشمل تواريخ متعددة للأمكنة والأشخاص والأزمنة ؛ إنه تاريخ يقدم رؤية لا بديل عنها لتاريخ القدس نفسها ، وفق ما يلمح إليه لومير .

بل إن المؤلف يستنتج أنه إذا لم يتم كتابة تاريخ ما جرى لهذه الحارة ، فلأن هذا التاريخ تتخلله أحداث مؤلمة يجري التستر عليها .

هنا يتجه إلى عُدة أرشيفية لترميم أجزاء الصورة المبعثرة للحدث ، وإعادة تركيب الوقائع كما ترويها المخطوطات والشهادات والوثائق الرسمية في الأرشيفات الفلسطينية والعثمانية والفرنسية وحتى الإسرائيلية .

سجلات ومخطوطات ناطقة

لإعادة تركيب الحدث ، لجأ لومير إلى استنطاق مجموعة متنوعة من السجلات والوثائق التاريخية والأرشيفات التي عكف على تحليلها ، منها أرشيفات المحكمة الإسلامية في القدس ، وأرشيفات الأوقاف في أبو ديس ، وبالبلدية الأردنية في القدس ، والأرشيف العثماني ، والأرشيف الدبلوماسي الفرنسي في مدينة نانت ، وسجلات مديرية الشؤون الجزائرية في الأرشيف الوطني الفرنسي لما وراء البحار ، وأرشيف المغرب ، وأرشيف اللجنة الدولية للصليب الأحمر ، فضلا عن الأرشيفات الشخصية لأفراد شاركوا في الأحداث ، كما تُقدم بعض شهادات سكان سابقين لمنطقة حائط البراق رؤى قيّمة حول تاريخ القدس وحارة المغاربة فيها .

كانت بعض تلك الأرشيفات (كالأرشيف المحلي للأوقاف في أبو ديس بالقدس) تحكي تاريخًا إسلاميًا لحارة المغاربة ، فيما أثبتت الأرشيفات العثمانية المحفوظة في اسطنبول وأنقرة أن وقفيات المسلمين

والمؤسسات التابعة لها بالحارة كانت خاضعة لسلطة الامبراطورية ، بحيث كان المسؤولون عن تلك المؤسسات يُعيّنون أو يُقالون من طرف الباب العالي ، الذي كان أيضا يُدقق في الحسابات التي تُرفع إليه فيقرها أو يرفضها ويحاسب عليها ، كما كانت تُرفع إليه مطالب السكان للنظر فيها ودراستها بعناية .

كان هذا شأن حارة المغاربة كجزء أساسي من مدينة استراتيجية كانت تتعرض لأطماع ومنافسات القوى الأجنبية منذ منتصف القرن التاسع عشر ، بمعنى أنه كان هناك تاريخ امبراطوري عثماني في المدينة قبل سقوطها جراء تلك المطامع الأجنبية .

أما الأرشيفات المحلية المتعلقة بالحارة نفسها ، ولاسيما ما يغطي منها الفترة الممتدة من 1890 إلى 1910 ، فتبين أن الحارة كانت مندمجة في المشاريع والبرامج المخصصة لمدينة القدس ، وكانت تحظى بالرعاية من خلال عمليات الصيانة والإنارة والنظافة ، كما كانت تخضع لعملية تحديث كغيرها من المناطق الأخرى بالمدينة .

في مسعاه لتكوين نظرة جامعة لتاريخ الحارة منذ جذورها الأولى وإلى بداية القرن العشرين ، كان لومير يلجأ إلى الربط فيما تحصَّل لديه من تلك الأرشيفات المختلفة باعتبار أن كل جزء منها كان يعكس – برأيه – حقيقة أو واقعا جرفته آلة الهدم الإسرائيلية وأدخلته في دائرة نسيان متعمد .

بدايات المؤامرة

يغوص لومير في تفاصيل المؤامرة ويعود سنوات بل عقود قبل جريمة هدم الحارة بحجة بناء مكان لعبادة اليهود . ففي مطلع القرن العشرين ، قوبلت خطط الهدم الجزئي لحي المغاربة بدعم المنظمة الصهيونية العالمية ، ويكشف الأرشيف الصهيوني المركزي ، الذي أُنشئ في برلين عام 1919 ونُقل إلى القدس عام 1933 ، عن عدة مبادرات خاصة لشراء منازل ، ثم حارة المغاربة بأكملها ، بهدف إنشاء ساحة أمام حائط البراق .

شملت إحدى هذه المبادرات إدموند دي روتشيلد . ففي عام 1912 ، حاول ألبرت عنتيبي ، وهو سوري ومدير مدرسة التحالف الإسرائيلي العالمي في القدس ، استقطاب اهتمام مدير الشركة الأنجلو-فلسطينية ، وتواصل مع عضو مجلس المدينة ديفيد يلين لشراء منازل في الحي كانت مُقررة للهدم .

وبين خريف عام 1915 وصيف عام 1916 ، وفي خضم الحرب ، حاول مدير المكتب الفلسطيني للمنظمة الصهيونية التفاوض مع جمال باشا ، حاكم سوريا العثماني ، لشراء الحارة المغاربية ، مع دفع تعويضات لسكانها . إلا أنه سرعان ما أدرك أن جمال باشا يفتقر إلى الشرعية الكافية للتنازل عن وقف . والأهم من ذلك ، أنه كان في وضعٍ حرجٍ للغاية في ظل الحرب العالمية . ومع ذلك ، خُصخِصت خلال القرن

التاسع عشر بعض عناصر أوقاف القدس ، كما أوضح المؤرخ الفلسطيني موسى سرور في كتابه عن القدس (Ababsa, 2023) .

غير أنه بعد الحرب العالمية الأولى وهزيمة العثمانيين ، تنافست فرنسا وبريطانيا على السيطرة على الشرق الأوسط ، مما جعل «أيتام الإمبراطورية العثمانية» ، بحسب وصف لومير للسكان المحليين ، خاضعين لقوتين استعماريتين متنافستين .

خلال هذه الفترة ، سعى الجزائريون ، الذين كانوا يتمتعون بوضع مختلف عن المغاربة والتونسيين تحت الحكم الاستعماري الفرنسي ، إلى إثبات مكانتهم كرعايا فرنسيين في ظل الانتداب البريطاني على فلسطين ، وكان ذلك لحماية ممتلكاتهم وأراضيهم من الضغوط المصاحبة لانطلاق المشروع الصهيوني ، الذي هدف إلى مصادرة أراضيهم وإرثهم التاريخي في مدينة القدس .

بعد انتهاء الحكم الاستعماري البريطاني ، سعت فرنسا جاهدةً لاستعادة السيطرة على هذه النسخة المصغرة من الجزائر الفرنسية في الشرق الأوسط ، كما وصفها لومير . علاوة على ذلك ، دخلت فرنسا في مفاوضات مع السلطات الإسرائيلية لاستعادة ممتلكات المغاربة ، بحجة أن تلك الممتلكات في حوزة مواطنين يحملون جنسيتها . وكثيراً ما استشهد لويس دي ماسينيون بحقوق ملكية وقف تلمسان ، مُلمحاً إلى جذوره الجزائرية ، وبالتالي مُبرراً بذلك مطالبة فرنسا بحماية هذا التراث .

لكن هذا الموقف كان يصطدم بتعنت سلطات الاحتلال . ويوضح لومير كيف سعى الصهاينة المتدينون ، بعد حرب يونيو 1967 وسقوط القدس ، إلى ترجمة تطلعاتهم المسيانية إلى أهداف سياسية ملموسة . غير أن ذلك كان يستدعي ضرورة فهم عملية صنع القرار وراء هذه العملية المرتبطة بالمسؤولية عن الحفاظ على تراث مدينة مقدسة وحمايته من التهديد الذي لحقه .

يشير لومير إلى مسؤولية الحكومة الإسرائيلية التي عقدت اجتماعات ضمت السلطة العسكرية ووزارة الداخلية ووزارة الشؤون الدينية وبلدية القدس الغربية وهيئة الحدائق الوطنية ، بالتنسيق مع وزارة الخارجية . وكان الهدف هو تقديم المشورة بشأن القرارات المناسبة لتدمير حارة المغاربة .

وفعلا ، نُفذ هذا التدمير ليلة العاشر من يونيو/حزيران 1967 ، مباشرة بعد وقف إطلاق النار الذي أنهى الحرب . في استنتاجه ، يصل لومير إلى أن إسرائيل كانت متورطة في بناء وتوطيد جدار الصمت لتطويق الحدث وتمويهه ؛ فخفة الحركة العملياتية ، وسرعة التنفيذ ، ومرونة قنوات النقل ، كل هذه العناصر مجتمعة تفسر فعالية التدمير في تلك الليلة . ولكن كان هناك عامل حاسم آخر سمح بإخفاء عملية صنع القرار في المراحل الأولى ، وبالتالي إخفاء المسؤولية السياسية عنها ، وهو محاولة تقديم تدمير الحارة على أنه مبادرة عفوية من قبل مقاولين من القطاع الخاص في القدس الغربي . طبعا كان الهدف هو إخفاء دور الجيش والبلدية والحكومة ، وكان هذا العرض الفج كافيًا بنظر السياسيين

الإسرائيليين لجعل الأمر الواقع مقبولًا .

وبعد ،

أكيد أن المؤرخ فانسان لومير تمكن من تسليط الضوء من جديد على هذا الجزء من النكبة الفلسطينية من خلال عرضٍ وطَّأ له بأسئلة تمهيدية وتفصيلات مدعمة بالبيانات والشهادات والمخطوطات والوثائق الأرشيفية ، مما جعل هذا العمل يحظى بصدى إيجابي في أوساط الأكاديميين والمهتمين بتاريخ القدس وفلسطين ، وهو الصدى الذي تردد أيضا في وسائل ومنابر إعلامية عديدة استضافت صاحب هذه الدراسة للحديث في موضوع الكتاب .

تكمن أهمية حارة المغاربة في ما تمثله من رمزية كبيرة مستمدة من ناحية موقعها وتاريخها وديموغرافيتها وأوقافها ، وإذا كان النسيان لفَّ مصيرَ هذه الحارة الشهيرة المأساوي ، فماذا يمكن أن يُقال عن أحياء وحارات بل مدن وقرى فلسطينية عديدة تعرضت لنفس المصير دون أن يبالي بها ولا يأتي على ذكرها أحد .

لكن هناك ملاحظتان – في سياق هذه القراءة – على مقاربة الكاتب في الموضوع عرض ومعالجته ؛ أولاهما أن الكاتب يقدم هذا الحدث (هدم حارة المغاربة) على أنه اكتشاف متأخر لأهميته التاريخية وعرضه بشكل أفضل من ناحيته (من جانب الكاتب) ، والحال أن هناك دراسات سبق لها أن تناولت هذا الموضوع مع أنها لم تلق نفس الصدى الذي لقيه كتاب لومير .

قد نتفق مع الكاتب في الادعاء بالاكتشاف المتأخر والعرض بشكل أفضل للموضوع ، لكن في سياق الاهتمام الأكاديمي الأوروبي أو الغربي بصفة عامة ، حيث لم تنل هذه القضية المتعلقة بهدم حارة المغاربة وتدمير مظاهر الحياة فيها بما يكفي من الاهتمام والدراسة .

الملاحظة الثانية تتعلق بتجاهل الأبعاد الأخرى التي يكتسيها هذا الموضوع ، والتركيز فقط على «البعد التاريخي» وأهميته ، و«التوصيف الأخلاقي» من قبيل «كذبة» ، وخيانة» و«نسيان متعمد وصمت ولامبالاة» . .

كل ذلك يأتي على حساب أبعاد لا تقل أهمية ، بل جوهرية في الموضوع ، ويتعلق الأمر بالجوانب القانونية والحقوقية وكذلك بالمسؤولية السياسية للدول المعنية مباشرة بتلك القضية تحديدا وقضية فلسطين على العموم وعلى رأسها بريطانيا وفرنسا ، اللتين كانتا على اطلاع بتفاصيل المؤامرة وتنفيذها والتستر عليها .

جاء في الكتاب أن إسرائيل كانت متورطة في بناء وتوطيد جدار الصمت حول هذا الموضوع ، لكن هذا الصمت ترسَّخَ بالفعل نتيجة تجاهل متعمد من تلك الدول التي كانت تتابع ما يجري دون إبداء أي

رد فعل للردع ، مما شجع كيان الاحتلال على تكرار مأساة الحارة بعد ذلك في مناطق أخرى عديدة من فلسطين ، لعل أخرها ما حدث ولا زال بأحياء وحارات غزة .

المراجع

أولًا : العربية

باجس ، إبراهيم . (2024) . تاريخ الجزائريين في بيت المقدس وفلسطين . الجزائر : دار زاجل الكتاب .

بركات ، بشير عبد الغني . (2021) . تاريخُ المَغارِبَةِ في بَيتِ المَقدِس . عمّان : مؤسسة التراث العربي .

التازي ، عبد الهادي . (1972) . أوقاف المغاربة في القدس . . وثيقة تاريخية سياسية قانونية . د . ن .

الجعبة ، نظمي . (2021) . **المغاربة في بيت المقدس** . الرباط : وكالة بيت مال القدس .

رضوان ، محمد . (2023) . باب المغاربة وحارتهم بالقدس . كراسات مقدسية . منشورات وكالة بيت مال القدس الشريف .

لومير ، فانسان . (2024) . تحت وطأة الحائط ، حارة المغاربة في القدس : حياتها وموتها (1187-1967) . ترجمة : داود تلحمي . بيروت : مؤسسة الدراسات الفلسطينية .

ثانيًا : الأجنبية

Ababsa, Myriam. (le 13 avril 2023). Micro-histoire dans la ville sainte. À propos de: Vincent Lemire, Au pied du Mur. Vie et mort du quartier maghrébin de Jérusalem (11871967-) https://laviedesidees.fr/Micro-histoire-dans-la-ville-sainte#nb6

Cohen-Muller, Rina. (2024). Revue d'histoire moderne et contemporaine. 20242/ No 712/. Pages 158 à 160

Lemire, Vincent. (2022). Au pied du mur: Vie et mort du quartier maghrébin de Jérusalem (11871967-). Le Seuil.